"التطرف الهيرمنيوطيقي للاغتراب الديني"

د/ غلاب عليَّو حمادة عثمان(*)

المقدمة:

يعد "الاغتراب" Alienation من المفاهيم المهمة التي طرحت بشكل ملحوظ على مائدة البحث العلمي في الفترات الراهنة، وذلك لارتباطه بعديد من حقول المعرفة الإنسانية، مثل الدين، والسياسة، والاجتماع، والاقتصاد ... إلخ، ويتغير مفهومه وفقًا لتغيُّر الحقل المعرفي الذي يعالج فيه، ومن الجدير بالذكر أن الاغتراب في الأصل مصطلح ديني يعبر عن حالة الانفصال، وبما إننا نتحدث في حقل الدين، فيعني الانفصال هنا هو انفصال الإنسان عن ربه، أو عن دينه. وبالتالي، فالاغتراب في حقل الاقتصاد يعني انفصال الإنسان عن عمله، والاغتراب في حقل علم الاجتماع يعني انفصال الإنسان عن مجتمعه والمحيطين به، والاغتراب في الوجودية يعني انفصال الإنسان عن ذاته وخصوصيته الوجدانية. ولكن، قد يحدث في بعض الأحيان أن تتم المغالاة والتطرف في تفسير ذلك الاغتراب، الأمر الذي يترتب عليه نتائج بالغة الخطورة، مثل إصابة الإنسان ببعض الأمراض، مثل: الانتحار، والإلحاد، والإرهاب.

ويمكن معالجة إشكالية التطرف الهيرمنيوطيقي "للاغتراب الديني" Religious Alienation خلال الإجابة على عدة تساؤلات: ما مفهوم الاغتراب؟ وكيف تطور؟ وما أهم سياقاته؟ وما التأويلات التي حدثت للاغتراب الديني؟ وما مظاهر الاغتراب الديني؟ وما أهم الأمراض التي قد يتسبب في حدوثها؟ وما العلاج الروحي له؟

أولًا: مفهوم الاغتراب وسياقاته المختلفة.

١. مفهوم الاغتراب.

لقد اشتق لفظ "الاغتراب" في اللغات الأوربية القديمة - والذي يقابل الكلمة الإنجليزية "Alienation" أو نظيرتها الفرنسية "Aliénation" - من الكلمة اللاتينية "Alienatio"، وهي اسم مستمد من الفعل اللاتيني "Alienare" بمعنى ينقل أو يسلم أو يبعد، وهذا الفعل مأخوذ بدوره من كلمة لاتينية أخرى هي "Alienus" بمعنى "الانتماء إلى الآخر"، وهي مشتقة من كلمة "Alius"، بمعنى "الآخر" أو "آخر"،(١) أما في اللغة العربية فقد وردت كلمة "غربة" بمعنى أن يكون الأخر، وذلك في سياقين: "ديني" و"نفسي - اجتماعي"، وبمعاني لا تختلف كثيرًا عن

(*) د/ غلاب عليو حمادة عثمان، مدرس فلسفة العصور الوسطى بجامعة سوهاج.

(١) محمود رجب: الاغتراب "سيرة ومصطلح"، دار المعارف، ط ٣، القاهرة، ١٩٨٨م، ص ٣١، ٣٢.

معناه في اللاتينية. وكانت كلمة اغتراب منذ بدايات استعمالها في التراث العربي القديم مزدوجة المعنى، إذ كانت تطلق للدلالة على عناصر إيجابية (مقبولة)، وكانت تطلق على عناصر سلبية (مرذولة) في الوقت ذاته،[٢] وهو ما يختلف عن مدلولات المصطلح في اللغات الأوربية القديمة والحديثة على حد سواء، والتي تشير إلى المعاني السلبية فقط، ولا وجود للمعاني الإيجابية على الإطلاق، وهو ما ساعد على التأويل المتطرف لذلك المفهوم.

كما وجد مفهوم الاغتراب في الفكر اليوناني، وخاصة عند "أفلاطون" ونظريته عن المُثل، والذي يرى بأن النفس اغتربت عن الآلهة حين سقطت في الخطيئة، ثم جاء "أرسطو" ليكشف أن الاستغلال للثروات هو جوهر الاغتراب، وذلك عندما ينظر الناس إلى النقود على إنها غاية، ويتحول عن طبيعتها باعتبارها وسيلة لإشباع الحاجات الطبيعية فتضطرب الحياة الاجتماعية، فمتى تحولت الوسائل إلى غايات، شعر الإنسان بالاغتراب.[٣] ويشير الاغتراب عند "أوغسطين" Augustine إلى "الأذهان المغتربة" Alienation Mentis.[٤] ويُحسَّب لـ"هيجل" إدخال هذا المفهوم إلى حقل الفلسفة، والاغتراب هو العملية التي يموضع بها العقل نفسه بالتفكير، كما أدخله "ماركس" إلى النظرية الاجتماعية، فيغير الإنسان بالعمل الجماعي البيئة الطبيعية من حوله، ورغم أن البشر هم الذين يصنعون العالم الاجتماعي، فإن العالم أصبح "غريبًا" عنهم لا يملكونه، وإنما تملكه وتملك الإنسان معه أشياء أخرى، صنعها الإنسان بنفسه، ثم استقلت عنه وسيطرت عليه وعلى العالم، منها: الكهنوت، والمال، والأفكار الجامدة التي ارتبطت بمصالح بعينها. كما يستحيل على الإنسان أن يتعرف على وجوده بذاته، فيعاني الاغتراب الذي لا سبيل لهزيمته، إلا بالمعرفة المتحررة من الغرض.[٥]

كما أن هناك نوعين من الاغتراب في القرن العشرين من حيث العلاقات الكائنة بالمؤسسات الدينية: فهناك "الاغتراب من الدين"، ويعنى رفض المؤسسة الدينية القسرية، والخروج عليها، وبخاصة في محاولتها مقاومة التغيير، وينعكس مثل هذا

(٢) المرجع السابق، ص ١٠.
(٣) صلاح الدين أحمد الجماعي: الاغتراب النفسي الاجتماعي وعلاقته بالتوافق النفسي والاجتماعي، دار زهران للنشر والتوزيع، عمان، ٢٠١٠م، ص ٣٩.
(٤) عبد الله عبد الله: الاغتراب النفسي وعلاقته بالصحة النفسية ، جامعة الجزائر (بن يوسف بن خدة)، ٢٠٠٨م، ص ٢٣، ٢٤.
(٥) سامي خشبة: مصطلحات فكرية، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٨م، ص ٢٧ - ٢٩.

التوجه لدى بعض المثقفين في العصر الحديث، كما يتجلى في مؤلفات كل من: شبلي شميل، والكواكبي، وجبران خليل جبران، وغيرهم. وهناك "اغتراب في الدين"، ويعني أن المؤمن المتشدد في إيمانه ينسب قواه الذاتية إلى قوى خارج نفسه ويسلمها مصيره باستقلال عنه، وينعكس ذلك في توجهات بعض الحركات السلفية منذ بدايتها وبخاصة في مؤلفات ابن تيمية.(٦) وبعد أن تعرفنا على لمحات سريعة من مفهوم بعض الفلاسفة للاغتراب، يجب علينا الوقوف على أهم السياقات الرئيسيِّة التي يُعالج في ضوئها الاغتراب.

٢. السياقات المعرفية لمفهوم الاغتراب:

يأتي الاغتراب في كثير من السياقات المعرفيَّة، أهمها: السياق القانوني، والسياق النفسي، والسياق الاجتماعي، والسياق الديني. وبالتالي يختلف المفهوم الدلالي للاغتراب وفقًا لإخلاف السياق الذي سيأتي فيه.

ويُعد "ريتشارد شاخت" Richard Schacht من أهم الباحثين الذين أشاروا إلى أن مصطلح الاغتراب يشير إلى أربعة دلالات: أولها، الانتقال غير الشرعي للملكية من إنسان إلى إنسان أو من شعب إلى شعب آخر، وثانيها، فقدان القدرات العقلية أو غياب الوعي، وثالثها، اضمحلال العلاقات الودّية بين شخص وآخر، ورابعها، ابتعاد الإنسان عن الله، وينسب بعض المؤرخين هذا النوع من الاغتراب الديني إلى تجارب كُلٌّ من: بولس، ولوثر، وكالفن في تاريخ تطور المسيحية.(٧)

فيدل مفهوم "الاغتراب" في السياق القانوني على تحويل شيء لشخص ما إلى شخص آخر. أي أن ما هو ملك لي وينتمي إليَّ يُصبح ملكًا لغيري، وتكون عملية نقل الملكية إما إرادية وفقًا لحرية الإنسان أو جبرية تنتفي معها حريته، وفي هذه الثنائية تكمن السمة الجدلية للاغتراب، كما أن هذا المصطلح الدال على الاغتراب يفيد قابلية الأشياء والممتلكات بما فيها البشر للتنازل أو البيع، وبالتالي يتضمن هذا المعنى القانوني للاغتراب "التشيؤ"، أي يصبح الإنسان مجرد سلعة أو شيء قابل للبيع أو للشراء.(٨) ويدل في السياق السيكولوجي على الشخص الذي يفقد الوعي ويعجز عن استخدام قدراته العقليَّة والحسيَّة في التواصُل مع الأخرين والتعبير عن نفسه، وغياب الوعي وتركيز اهتمام الفرد في شيء معين بذاته يشغله حتى عن نفسه، وهذا المعنى

(٦) حليم بركات: الاغتراب في الثقافة العربية "متاهات الإنسان بين الحلم والواقع"، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٦م، ص ١٢٥.

(٧) المرجع السابق، ٣٦، ٣٧.

(٨) لزهر مساعدية: نظرية الاغتراب من المنظورين العربي والغربي، دار الخلدونية، الجزائر، ٢٠١٣م، ص ١٢.

يُستخدم عادة في الطب النفسي لوصف الحالات التي تتجاوز الاضطرابات النفسية إلى المرض العقلي. كما يشير في السياق السيسيولوجي إلى شعور المرء بالانفصال عن الكل الاجتماعي الذي ينتمي إليه، وهو انعكاس لوضع الفرد في المجتمع نتيجة ما يوقعه الأخير بالإنسان من عقوبات العزل أو النبذ بسبب الخروج عن المعتقدات والتقاليد السائدة، فالمغترب هو من خرج عن المألوف الاجتماعي.(٩) أما بالنسبة للسياق الديني، فيعني الاغتراب انفصال الإنسان عن الله، وذلك بفعل الخطيئة وارتكاب المعاصي، وقد ورد لفظ الاغتراب في الترجمات والشروح اللاتينية للكتاب المقدس، خاصة في النصوص التي تتحدث عن فكرة الخطيئة، فبالنظر إلى هذه السياقات المختلفة لمصطلح الاغتراب يمكن القول أنها تلتقي وتشترك في معنى واحد، آلا وهو انفصال الإنسان إما عن شيء ما أو عن العقل والحواس، أو عن الأخرين، أو عن الله.(١٠) وسياق الذي سنهتم به، وستعالجه هنا هو السياق الديني في ضوء التأويلات المتطرفة لمفهوم الاغتراب.

ثانيًا: تأويلات الاغتراب الديني في الكتابات الدينية.

لقد استخدم رجال الدين مصطلح "الاغتراب"؛ ليشير إلى الانفصال، ولكن بدلالات مختلفة، فيدل المعنى الأول على حالة انفصال الإنسان عن الله، أما المعنى الثاني، فيشير إلى اغتراب الإنسان عن جسده باعتباره عائقًا عن الله، لأن الروح ضد الجسد، ويشير المعنى الثالث إلى انفصال الإنسان عن الآخرين، ويشير المعنى الرابع إلى الاغتراب عن المنظمات الدنيوية الزائلة التي تخرج عن نطاق المؤسسات الروحية، على أساس إن التعلق بالعالم الزائف هو انفصال عن الله،(١١) ويمكن تقصي أثار مفهوم الاغتراب في الكتابات اليهودية، والمسيحية، والإسلام.

١. الاغتراب في الفكر اليهودي.

تكمن الجذور التاريخية الأولى لتجربة الاغتراب في قصة خلق آدم وحواء وعصيانهما لله، وهبوطهما من السماء إلى الأرض، في ما ورد في العهد القديم(١٢)،

(٩) صلاح الدين أحمد الجماعي: مرجع سابق، ص ٤٧.
(١٠) لزهر مساعدية: مرجع سابق، ص ١٤، ١٥.
(١١) صلاح الدين أحمد الجماعي: مرجع سابق، ص ٣٩، ٤٠.
(١٢) فقد جاء في الأصحاح الثاني من "سفر التكوين": (١٥وَأَخَذَ الرَّبُّ الإِلهُ آدَمَ وَوَضَعَهُ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ لِيَعْمَلَهَا وَيَحْفَظَهَا. ١٦وَأَوْصَى الرَّبُّ الإِلهُ آدَمَ قَائِلاً: «مِنْ جَمِيعِ شَجَرِ الْجَنَّةِ تَأْكُلُ أَكْلاً، ١٧وَأَمَّا شَجَرَةُ مَعْرِفَةِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ فَلاَ تَأْكُلْ مِنْهَا، لأَنَّكَ يَوْمَ تَأْكُلُ مِنْهَا مَوْتًا تَمُوتُ». ١٨وَقَالَ الرَّبُّ الإِلهُ: «لَيْسَ جَيِّدًا أَنْ يَكُونَ آدَمُ وَحْدَهُ، فَأَصْنَعَ لَهُ مُعِينًا نَظِيرَهُ». ١٩وَجَبَلَ الرَّبُّ الإِلهُ مِنَ الأَرْضِ كُلَّ حَيَوَانَاتِ الْبَرِّيَّةِ وَكُلَّ طُيُورِ السَّمَاءِ، فَأَحْضَرَهَا إِلَى آدَمَ لِيَرَى مَاذَا يَدْعُوهَا، وَكُلُّ مَا

حول قصة خلق آدم، وانفصال حواء وتشكلها، بأن أخذ الله واحدة من أضلاع آدم وملأ مكانها لحما، وبنى الله من الضلع امرأة، فخلق حواء هو أول انفصال في الكون، أما ثاني انفصال فيكمن في هبوط آدم من الجنة إلى الأرض، وهو أول اغتراب عن الله، فقد عصى آدم ربه، فأخرجه من جنة عدن ليعمل في الأرض. كما يشير "حسن حماد" إلى أنه يمكن العثور في "سفر المزامير" على نصوص أخرى تفيد معنى الانفصال عن الله، إذ جاء في المزمور الرابع والخمسين ما نصه: (**[1]اَللَّهُمَّ، بِاسْمِكَ خَلِّصْنِي، وَبِقُوَّتِكَ احْكُمْ لِي. [2]اسْمَعْ يَا اَللهُ صَلاَتِي. اصْغَ إِلَى كَلاَمِ فَمِي. [3]لأَنَّ غُرَبَاءَ قَدْ قَامُوا عَلَيَّ، وَعُتَاةً طَلَبُوا نَفْسِي. لَمْ يَجْعَلُوا اللهَ أَمَامَهُمْ.**)، كم جاء في المزمور المائة والرابع والأربعين: (**[11]أَنْقِذْنِي وَنَجِّنِي مِنْ أَيْدِي الْغُرَبَاءِ، الَّذِينَ تَكَلَّمَتْ أَفْوَاهُهُمْ بِالْبَاطِلِ، وَيَمِينُهُمْ يَمِينُ كَذِبٍ.**)، فالمعنى المراد هنا الانفصال عن الله.[13]

أما بالنسبة لفكرة "الصنمية"، فيشير "حسن حماد" إلى أنه قد جاء في العهد القديم في "المزامير" بأن وصفت الأوثان ووصف صانعوها بالعجز،[14] فجاء في المزمور المائة والخامس عشر أن: (**[4]أَصْنَامُهُمْ فِضَّةٌ وَذَهَبٌ، عَمَلُ أَيْدِي النَّاسِ. [5]لَهَا أَفْوَاهٌ وَلاَ تَتَكَلَّمُ. لَهَا أَعْيُنٌ وَلاَ تُبْصِرُ. [6]لَهَا آذَانٌ وَلاَ تَسْمَعُ. لَهَا مَنَاخِرُ وَلاَ تَشُمُّ. [7]لَهَا أَيْدٍ وَلاَ تَلْمِسُ. لَهَا أَرْجُلٌ وَلاَ تَمْشِي، وَلاَ تَنْطِقُ بِحَنَاجِرِهَا. [8]مِثْلَهَا يَكُونُ صَانِعُوهَا، بَلْ كُلُّ مَنْ يَتَّكِلُ عَلَيْهَا.**)، كما جاء في المزمور المائة وخمس وثلاثون أن: (**[15]أَصْنَامُ الأُمَمِ فِضَّةٌ وَذَهَبٌ، عَمَلُ أَيْدِي النَّاسِ. [16]لَهَا أَفْوَاهٌ وَلاَ تَتَكَلَّمُ. لَهَا أَعْيُنٌ وَلاَ تُبْصِرُ. [17]لَهَا آذَانٌ وَلاَ تَسْمَعُ. كَذلِكَ لَيْسَ فِي أَفْوَاهِهَا نَفَسٌ! [18]مِثْلَهَا يَكُونُ صَانِعُوهَا، وَكُلُّ مَنْ يَتَّكِلُ عَلَيْهَا.**)

وتُعد فكرة "الصّنميَّة" التي وردت في النصوص المقدسة فكرة جوهرية في مفهوم الاغتراب، فالصنم ما هو إلا خلق الإنسان، وفي عبادة الإنسان له انفصال للخالق عن ذاته وفقدانه لها، إذ يصبح الإنسان يعبد شيئًا صنعه بنفسه فيحول بذلك نفسه إلى شيء وينقل للشيء الذي صنعه سمات خاصة به، وبالتالي، فبدلًا من أن يدرك ذاته كإنسان مبدع خالق، فإنه يجد نفسه خاضعًا لشيء جامد من صَنيع يديه، ومن ثم فإنه يصير

دَعَا بِهِ آدَمُ ذَاتَ نَفْسٍ حَيَّةٍ فَهُوَ اسْمُهَا. ٢٠فَدَعَا آدَمُ بِأَسْمَاءٍ جَمِيعَ الْبَهَائِمِ وَطُيُورَ السَّمَاءِ وَجَمِيعَ حَيَوَانَاتِ الْبَرِّيَّةِ. وَأَمَّا لِنَفْسِهِ فَلَمْ يَجِدْ مُعِينًا نَظِيرَهُ. ٢١فَأَوْقَعَ الرَّبُّ الإِلهُ سُبَاتًا عَلَى آدَمَ فَنَامَ، فَأَخَذَ وَاحِدَةً مِنْ أَضْلاَعِهِ وَمَلأَ مَكَانَهَا لَحْمًا. ٢٢وَبَنَى الرَّبُّ الإِلهُ الضِّلْعَ الَّتِي أَخَذَهَا مِنْ آدَمَ امْرَأَةً وَأَحْضَرَهَا إِلَى آدَمَ. ٢٣فَقَالَ آدَمُ: «هذِهِ الآنَ عَظْمٌ مِنْ عِظَامِي وَلَحْمٌ مِنْ لَحْمِي. هذِهِ تُدْعَى امْرَأَةً لأَنَّهَا مِنِ امْرِءٍ أُخِذَتْ». ٢٤لِذلِكَ يَتْرُكُ الرَّجُلُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ وَيَلْتَصِقُ بِامْرَأَتِهِ وَيَكُونَانِ جَسَدًا وَاحِدًا. ٢٥وَكَانَا كِلاَهُمَا عُرْيَانَيْنِ، آدَمُ وَامْرَأَتُهُ، وَهُمَا لاَ يَخْجَلاَنِ. سِفْرُ التَّكْوِينِ: الأصحَاحُ الثَّانِي، (١٥ – ٢٥).

(١٣) لزهر مساعدية: مرجع سابق، ص ١٥- ١٧.

(١٤) المرجع السابق، ص ١٧، ١٨.

غريبًا عن حياته، وإمكانياته الخلاقة.[١٥] كما أن الاغتراب الذي يتحدد في الصَنميَّة هو اغتراب الإنسان عن نفسه بوعي أو دون وعي، وذلك حين يلجأ إلى عبادة الأشياء، أو تكون هناك أهداف خاصة لدى الإنسان تستولي على كيانه، وتجعله في حالة "عمى" عن رؤية البشر والعالم من حوله.[١٦]

٢. الاغتراب في الفكر المسيحي.

يقوم الاغتراب الديني في المسيحية على انفصال الإنسان عن الله، أي يتعلق بالخطيئة وارتكاب المعصية، فالخطيئة ليست مجرد تعدٍ على شريعة الله وأحكامه، إنما في جوهرها انفصال عن الله،[١٧] كما جاء في العهد الجديد قول بطرس: أطلب إليكم كغرباء ونزلاء أن تمتنعوا عن الشهوات الجسدية، ويقول: فسيروا زمان غربتكم أي حياتكم بخوف، بمعنى أن حياة الإنسان على الأرض هي حياة اغتراب عن الله، كما جاء في العهد الجديد في رسالة "بولس إلى أهل أفسس" في الإصحاح الرابع لتوضيح معنى الاغتراب، حيث نجد أنه حالة من حالات الموت الروحي الذي يعني الاغتراب عن الله، بفعل المعاصي، والذنوب، والخطايا، ولذلك يدعو الله الإنسان أن يخرج من حالة الموت إلى روح الوجود، والغرباء في الكتاب المقدس هم الذين ابتعدوا عن الله، وسلكوا طريق الباطل، فالاغتراب هنا يفيد الانفصال عن الله.[١٨]

كما رجع "شاخت" إلى الترجمات اللاتينية القديمة للإنجيل، لكي يثبت وجود "كلمة" الاغتراب، ففي رسالة "بولس الرسول إلى أهل أفسس" في الإصحاح الرابع يُعرف بولس الرسول الوثنيين بقوله: (١٨**إِذْ هُمْ مُظْلِمُو الْفِكْرِ، وَمُتَجَنِّبُونَ عَنْ حَيَاةِ اللهِ لِسَبَبِ الْجَهْلِ الَّذِي فِيهِمْ بِسَبَبِ غِلاَظَةِ قُلُوبِهِمْ.)**، وهنا يَرُّد "شاخت" عبارة "وَمُتَجَنِّبُونَ عَنْ حَيَاةِ اللهِ" إلى واحدة من الترجمات اللاتينية القديمة، وهي: "Alienatae Avita Dei"، وتعني "مغتربون عن حياة الله"، فكلمة الاغتراب في هذا المَوضِع تعني الانفصال والانقطاع عن الله، أو السقوط من النعم الإلهية إلى الخطايا والذنوب. كما استخدم "كالفن" Calvin الكلمة اللاتينية (Alienatio)، عندما كان يشرح الآيتين الأولى والثانية من الإصحاح الثاني من رسالة "بولس الرسول إلى أهل أفسس"، حيث يقول فيهما بولس مخاطبًا أهل أفسس: (١**وَأَنْتُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَمْوَاتًا بِالذُّنُوبِ وَالْخَطَايَا، ٢الَّتِي سَلَكْتُمْ فِيهَا قَبْلاً حَسَبَ دَهْرِ هذَا الْعَالَمِ، حَسَبَ رَئِيسِ**

(١٥) المرجع السابق، ص ١٧.
(١٦) صلاح الدين أحمد الجماعي: مرجع سابق، ص ٥٠.
(١٧) عبد الله عبد الله: مرجع سابق، ص ٢٤، ٢٥.
(١٨) صلاح الدين أحمد الجماعي: مرجع سابق، ص٣٩،٤٠، ٥١.

سُلْطَانِ الْهَوَاءِ، الرُّوحِ الَّذِي يَعْمَلُ الآنَ فِي أَبْنَاءِ الْمَعْصِيَةِ)، فقد علق "كالفن" قائلًا: "إن الموت الروحي ليس شيئًا آخر سوى اغتراب الروح عن الله ..."، كما تناول "مولر" Mueller، الكلمة اللاتينية (Alienation) الواردة في الترجمات والشروح اللاتينية للإنجيل، فأخذ الآية الثانية عشر من الإصحاح الثاني من رسالة "بولس الرسول إلى أهل أفسس"، وهي تلك التي يخاطبهم فيها بقوله: (١٢**أَنَّكُمْ كُنْتُمْ فِي ذلِكَ الْوَقْتِ بِدُونِ مَسِيحٍ، أَجْنَبِيِّينَ عَنْ رَعَوِيَّةِ إِسْرَائِيلَ، وَغُرَبَاءَ عَنْ عُهُودِ الْمَوْعِدِ، لاَ رَجَاءَ لَكُمْ، وَبِلاَ إِلهٍ فِي الْعَالَمِ.**)، ويردهما إلى أصلهما اليوناني، فنجد كلمتين، الأولى (apallatrioomai) بمعنى "أنا مغترب عن"، والثانية (politeia) بمعنى "حقوق المواطنة أو الوطن". وحين تُرجِمَ الإنجيل إلى اللغات الأوربية الحديثة، استخدم المترجمون تلك الكلمات الدالة على الاغتراب، والتي اشتقت أصلًا من الكلمة اللاتينية (alienatio) ففي الترجمة الإنجليزية للإنجيل نجد كلمة (alienation) والفعل (alienate)، وفي الترجمة الفرنسية كلمة (alienation) والفعل (aliener)، وفي الترجمة الألمانية كلمة (Entfremdung) والفعل (entfremden) وكلها تعني في هذا السياق الديني انفصال الإنسان عن الله عندما سقط من النعمة الإلهية ووقع في الخطيئة.(١٩)

فما ورد عن الاغتراب في الكتابات اللاهوتية الأولى إما أنه يعني قطع الصلة بين الإنسان والله؛ وهذا الانفصال نتج عن خطايا الإنسان ومعاصيه، أو عبادة الإنسان للأصنام التي يُضفي عليها – باعتقاده – الألوهيَّة؛ بمعنى أن الإنسان يغترب عن ذاته حتى يصل درجة الظن بأن المخلوق هو في الأصل الخالق.(٢٠)

ونعتقد أن الاغتراب في التأويلات اليهودية والمسيحية قد رسخت لمفهوم الاغتراب الديني، وجعل الإنسان بعيدًا عن الله، ويحتاج إلى وسيط لكي يشفع له عنده، فلا يجوز التعامل المباشر مع الله بسبب الخطايا التي ارتكبها الآباء الأوائل، والوسيط هنا يمثله رجال الدين وهو ما يرسخ قوتهم وتحكمهم في حياة الناس، هذا فضلًا عن استنزاف طاقاتهم الروحية والمادية، هذا فضلًا عن تنامي الهيمنة والتي يترتب عليها من ألوان عديدة من القهر، والاستبداد، والاستعباد، وهو ما لا يقره أي دين على الإطلاق، ووفقًا لذلك، فهذا التطرف التأويلي في واقعة الخطيئة من شأنها جعل الدين أداة لتحقيق مصالح أيديولوجيات بعينها ذات أغراض مادية، واجتماعية، وسياسية.

(١٩) محمود رجب: مرجع سابق، ص ٣٨ - ٤٠.
(٢٠) لزهر مساعدية: مرجع سابق، ص ١٨.

٣. الاغتراب في الفكر الإسلامي.

لم تَرِد كلمة "الاغتراب" في القرآن الكريم، وإن كانت حالة "انفصال الإنسان عن الله"، قد عبر عنها القرآن بوضوح، في قصة خلق آدم، وهبوطه من الجنة إلى الأرض، كما وردت في "سورة البقرة"[٢١]، فعن طريق تتبع هذه القصة نستطيع أن نتبين ثلاثة أحوال لوجود الإنسان - فيما يرى محمود رجب - فالحال الأول يمس خلق آدم قبل أن يقترب من الشجرة المحرمة. وهذا الحال الأول للوجود الإنساني يكشف عن ثلاث خصائص، وهي: الألوهية، والعلم، والقوة. فتتعلق "الألوهية" بماهية الإنسان التي خلقها الله على صورته وفقًا لماهيته: (... **فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ** ...) (الروم، ٣٠)، ولأن الإنسان يتصف بالألوهية فقد أمر الله الملائكة بعبادته: **(وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ)** (البقرة، ٣٤). وأما "العلم" فيتعلق بتلك المعرفة التي وهبها الله للإنسان، معرفته بخالقه وربه، وبالعالم أيضًا: **(وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ...)** (البقرة، ٣١). أما "القوة" فتتمثل في سيطرة الإنسان وسيادته على الأرض والسماء، وتحكمه في الطير، والحيوان، والماء والهواء، **(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً** ...) (البقرة، ٣٠).[٢٢]

ويتعلق الحال الثاني باقتراب آدم وحواء من الشجرة المحرمة، وهنا نجد مرحلتين: الأولى، وهي مرحلة المعرفة الواضحة لما هما فيه من عُرِي، وبداية الانفصال عن الله، وبدلًا من الحب جاء الخجل فحل محله، وكان من عواقبه ظهور الافتراق والثنائية، إذ بدأ آدم وحواء في النظر إلى نفسيهما على أنهما رجل وامرأة، وظهر أيضًا ذلك الصدع العميق بين الله والإنسان، لقد فقد آدم الحال الأول - الأصلي لوجوده، وترك ما كان عليه من قبل، وذلك عندما عصى ربه. لهذا، وقع فريسة لليأس، واستولى عليه الخوف، أما المرحلة الثانية فتكشف عن عون الله لآدم وعدم تخليه عنه في بأسه وقلقه من خلال حبه له وتعليمه إياه كلمات التوبة: **(فَتَلَقَّى آدَمُ مِن**

---

(٢١) قال تعالى: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ{٣٠} وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَـؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ{٣١} قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ{٣٢} قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ{٣٣} وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ{٣٤} وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ{٣٥} فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ{٣٦} فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ{٣٧} قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ{٣٨} وَالَّذِينَ كَفَرواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُولَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ{٣٩})، سورة البقرة: (٣٠ -٣٩)

(٢٢) محمود رجب: مرجع سابق، ص ١٧٧، ١٧٨.

رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) (البقرة، ٣٧)، وهكذا يهتم الله بآدم ويعفو عن خطيئته.(٢٣)

ويبدأ الحال الثالث حين يأمر آدم وحواء "بالهبوط" من الجنة: (... **وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ)** (البقرة، ٣٦)، الآن تكتمل عملية الخروج من الجنة، فانفصل الإنسان عن الله، وأحدث تغييرًا شاملًا، وانتقالًا محوريًا: من الحب إلى الخجل، من الوحدة إلى الثنائية فالكثرة، من الطمأنينة إلى القلق، من الثقة بالله إلى الألم والمعاناة. ولكن حب الله بلا حدود، ورحمته واسعة، فهو يمد الإنسان بالأمل ويَعِدّهُ بالهداية: **(قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ)** (البقرة، ٣٨)، وهذا الهدى الذي يَعِد به الله، في فجر الإنسانية، وبعد سقوط آدم وطرده من الجنة، إنما هو بمثابة الخلاص لمن يتبعه، والهدى يتحقق فعليًا في الزمان التاريخي من خلال الوحي.(٢٤)

فالإنسان إذن وفقًا للتصور القرآني لا يوجد بوصفه ملعونًا أو مغضوبًا عليه، بل يوجد بوصفه موجودًا في أزمة. فالأحوال أو التجارب الوجودية الثلاث التي تبدو منفصلة وهي في الحقيقة متصلة مع بعضها البعض، وهي: القرب من الله، ومعصية الله، والانفصال من الله، وأنواع النفس الثلاثة التي طالما تحدث عنها القرآن، وهي: النفس الأمارة، والنفس اللوامة، والنفس المطمئنة، ومناطق الوجود الثلاث: السماوات، والأرض، وما بينهما، فالإنسان اغترب عن الله، حينما عصى أمره هبط من السماء وصار موجودًا على الأرض، يعيش في أزمة، منتظرًا عون الله ولطفه، حتى يهديه، هذا عن الإنسان، فماذا عن الله؟ إن الله لا يتخلى قط عن الإنسان في محنته، فهو يشمله برحمة واسعة، أي حب شامل لا محدود، فإذا كان الإنسان قد اغترب عن الله، فان الله لم يغترب عن الإنسان، فالله قريب من الإنسان، أقرب إليه من حبل الوريد، فالله مثلما هو قريب من الإنسان فإنه في الوقت نفسه بعيد، إذ أنه موجود مطلق ومفارق، لا تدركه الأبصار ولا العقول،(٢٥) وبهذا، نجد أن تأويل الفكر الإسلامي للاغتراب مقارنة بالتفسيرات اليهودية والمسيحية له، أكثر عقلانيَّة في الفهم والتأويل، ويكسب الإنسان قيمته، وفرديته، واستقلاليته ولا يجعله مجرد تابع خاضع لآراء رجال الدين، وهو بدورة ينتفي عنه كثير من مظاهر الاغتراب وأمراضه.

(٢٣) المرجع السابق، ص ١٧٨.
(٢٤) المرجع السابق، ص ١٧٨، ١٧٩.
(٢٥) المرجع السابق، ص ٤٠، ٤١، ١٨١.

ومن الجدير بالذكر هنا إيضاح أن الاغتراب منظورًا إليه من زاوية الأديان السماوية، والتي يكون بمقتضاها انفصالًا عن الله وخروجًا عن طريق الله، أو مرادفًا للخطيئة، والضلال، والوثنية، فالاغتراب بهذا المعنى يختلف عما يقصده "فيورباخ" و"ماركس" ممن كانت لهم مواقف بالغة العنف إزاء اليهودية والمسيحية، بل والدين عامة، فالدين في نظرهم مجال يضيع فيه وبه الإنسان، وينفصل بواسطته عن وجوده الواقعي. ولكن على الرغم من هذا الاختلاف، فثمة عنصر مشترك، ألا وهو الانفصال عما يعد أصلًا ومصدرًا: الله في نظر الأديان، والواقع والإنسان في نظر هؤلاء الفلاسفة. فضلًا عن أن الاغتراب الديني، سواء في الكتب المقدسة أو عند هؤلاء الفلاسفة الذين لا يؤمنون بها، غير مقبول، لأن الإنسان يخضع بمقتضاه لشيء آخر غير ما يعتبر أنه هو الأصل، لذلك، كان الاهتمام بتحرير الإنسان، أي قهر هذا النوع من الاغتراب من خلال طرق ووسائل تختلف باختلاف كل دين عن الدين الآخر، وكل فيلسوف عن غيره.(٢٦)

رابعًا: مظاهر الاغتراب الديني وأمراضه.

للاغتراب الديني مظاهر كثيرة، أهمها: فقدان الإنسان لثقته وإيمانه بعدم استجابة الله له، مما يؤدي إلى إصابته بحالة من خيبة الأمل، واعتقاده بعدم قدرة الله على التغيير، وأن الله لم ينصفه من الظلم، لذلك يميل الأفراد المغتربين إلى الابتعاد عن روح الله، والإصابة باليأس، وفقدان الأمل، وعدم الرضا. ويشير "فيورباخ" باعتقاد الإنسان في حالة اغترابه عن الله بعدم رغبة ربه في مساعدته، وتخليصه من محنته، وتحقيق أهدافه، مما يؤدي إلى الابتعاد عنه، والشعور بالدُونية، والضياع، والعزلة؛ ويشير "سميث" Smith بأن المغترب دينيًا يشعر بفقدان المَعنى، وأن الله غير عادل، وأن العدالة الإلهية غير موجودة، فضلًا عن شعوره بالغضب من الله، وترك جميع العبادات الدينية، ويرى "اوبراين" O'Brien بأن الاغتراب عن الله يتمثل في شعور الفرد بأن الله ابتعد عنه وقت حاجته الشديدة ولم يقدم له يد العون والمساعدة.(٢٧)

كما قدم مجموعة من الباحثين بعض السمات الوجدانية السلبية التي تظهر لدى الأفراد الذين يعانون من الاغتراب، إذ أشارت "بيرج" Berg إلى أن المغتربين عن الله يشكون من الشعور بالذنب والغضب، والاستياء، والخوف من الموت، وأشارت "فونتانا" Fontana و"روزينهيك" Rosenheck بأن الأفراد الذين يظهرون تحولًا

(٢٦) المرجع السابق، ص ١٨٤.
(٢٧) علي عبد الرحيم صالح: مرجع سابق، ص ١.

سلبيًا في معتقداتهم الدينية، فإنهم يواجهون تحديات مرضية لمعتقداتهم مثل اللا معنى، والشعور بالألم، وتدهور الصحة النفسية، وارتفاع مستوى العجز، كذلك رصدت دراسة لـ "كالديرا" Caldeira، و"كارفاليو" Carvalho، و"فييرا" Vieira لعدد من مرضى السرطان ومغتربون دينيًا في الوقت ذاته، فكانوا يشعرون بالاكتئاب، وتدني مناعة الجسم، وضعف القدرة على مواجهة الحياة، وبدأوا بالابتعاد عن أهلهم وأصدقائهم. كما توصَّل "آمين" Ehman إلى سبعة خصائص مرضية لدى المغتربين دينيًا، وهي: الانقطاع عن الممارسات الدينية والأنشطة الاجتماعية، وصراع داخلي حول معنى الحياة وهدفها، والشعور بالظلم، واليأس والقنوط، والانسحاب من العلاقات الاجتماعية، والحزن، والاستسلام للواقع.(٢٨)

فتتفق معظم الدراسات النفسية على أن مظاهر الاغتراب عن الله يمكن بلورتها في أربعة، وهي: "التحولات في صور الله"، و"الوحدة الوجودية"، و"التشكيك الديني"، و"الانعزال الروحي". فغالبًا ما تظهر "التحولات في صور الله" بعد تعرض الإنسان لحادثة مؤلمة وصادمة لم تستطع قوى الفرد بمفردها على مواجهتها بفاعلية، إذ نجد أنه يبدأ بالشعور بالذنب وإلقاء اللوم على الأخرين والقوى الروحية التي لم تساعده. كما تتمثل "الوحدة الوجودية" في شعور الفرد بالضآلة، والضحالة، والفراغ في وجوده المادي والاجتماعي، إذ يكون الفرد من خلالها تائهًا وضعيفًا أمام تحدي الشر، والضغوط، والمصاعب الحياتية، كذلك يشعر بأنه معاقب من قبل الله بشكل لا نهائي، وأن الرحمة الإلهية انعدمت تجاهه، لذلك يصبح غير مبالي ومكترث بها، وقد يصبح إيمانه بأشياء أخرى أقوى من إيمانه بوجود الله، مما يفتح له ذلك طريقًا نحو الإلحاد. ويتمثل "التشكيك الديني" مظهرًا أخر من مظاهر الشعور بالاغتراب عن الله، التي يبدأ فيها المغترب بمراجعة الكثير من القيم، والمعتقدات، والعبادات الدينية، ويظهر هذا التشكيك في مدى جدوتها في تحقيق رغباته وتحقيق أمنه وخلاصه من كل شر، وبما أن المغترب بدأ يفقد إيمانه فانه يترك الكثير من الطقوس الدينية ويبتعد عن ممارستها بحرص أو تركها نهائيا. كذلك قد يمتد التشكيك ليأخذ المغترب في مسار مغاير عن حياته الدينية السابقة، إذ قد يتجه به نحو الشك بوجود الله، وما هي الدلائل التي تؤكد وجوده، كذلك يوجه المغترب إلى نفسه مجموعة من التساؤلات مثلا هل يستحق الإله الذي أؤمن به، عبادتي له؟ هل أن ديني مزيفة؟ هل توجد ديانة أخرى تستحق العبادة أكثر من ديني؟، وغيرها. كما يبدأ "الانعزال الروحي" عند أشد حالات

(٢٨) المرجع السابق، ص ٢، ٣.

الاغتراب، الذي يظهر في ضوء شعور المغترب بالوحدة والانفصال عن أبناء دينه الذين يعيشون معه، إذ يشعر بأنه لا ينتمي إليهم، وأنهم غرباء عنه، ولا تنسجم أفكاره ومعتقداته معهم، لذلك يبدأ بالانعزال عن الأخرين، وعدم مشاركتهم المناسبات الدينية والاجتماعية، ويكره تواجده معهم، ومحاولة مناقشتهم حول جدوى أفكارهم الدينية وما حققته لهم،[٢٩] ومن خلال التأمل الدقيق لمظاهر الشعور بالاغتراب الديني، نعتقد أنه كثيرًا ما يصاب الإنسان بالعديد من الأمراض مثل الانتحار، والإلحاد، والإرهاب وغيرها من الأمراض التي قد تخرج الإنسان عن الشعور بالحياة ذاتها.

خامسًا: العلاج الروحي للاغتراب الديني:

أما بالنسبة لعلاج هذا الاغتراب الديني، فقد حاول مجموعة من الباحثين وضع برامج وتوصيات حول كيفية إعادة ثقة الفرد بربه، وترميم علاقته الروحية معه، وجعله يتجاوز هذه المحنة بنجاح، فمن ضمن هذه البرامج وضع "فوستر" Foster مجموعة من الخطوات، تتمثل بمساعدة الفرد على المحنة التي يعاني منها، ومحاولة إقناعه من جديد بأهمية قيمه الروحية في التغلب على أعباءه وضغوطاته، ومزاولتها بصورة تدريجية وإيجابية، وجعله يعيش أجواء روحية مريحة. كذلك يوصي "هاس" Haase بأن ترميم العلاقة الروحية لدى الذين تعرضوا لخبرات مؤلمة تتم من خلال توفير الرفاهية الوجودية، وجعلهم يشعرون بأنهم يعاملون معاملة طيبَّة ويعيشون بكرامة وصدق، فهذا يساعد الفرد على إيجاد المعنى من الحياة، وتوفر الأمل، وترفع مستوى تقدير الذات، ورغم أن الباحثان السابقان يؤكدان على توفير الراحة والرفاهية الوجودية للفرد المغترب فإن "ناري نایاسامي" Naray Nasamy أوصى بنقطة مهمة جدًا لتغيير حياة الفرد المغترب روحيًا، إذ يرى أن التغيير يبدأ من خلال مساعدة الفرد بالتغلب على مخاوفه المرضية، وجعله يشعر بالعدالة الإلهية من جديد، وجعله يقتنع بأهمية وفائدة الخبرات المؤذية التي مر بها في تطوير شخصيته، وتجاوز المِحَن القادمة، وتشجيعهُ على ممارسة الأنشطة الدينية الرسمية من جديد مثل الصلاة والذهاب إلى دور العبادة.[٣٠] كما قام "لويد ريتشاردز" Lloyd-Richards بابتكار برنامج "إدارة الشدة الروحية" The management of spiritual distressوالذي يؤكد على التعامل مع مخاوف الشخص وأفكاره غير العقلانية والإجابة على تساؤلاته الوجوديَّة، وتوفير حياة بالثقة، وتطوير المهارات النفسية

(٢٩) المرجع السابق، ص١، ٢.
(٣٠) المرجع السابق، ص ٣، ٤.

والاجتماعية، ومساعدته الفرد على تقبل المفاهيم والقيم الروحية من جديد، فضلًا عن ممارسة الأنشطة الدينية، وتشجيع الأفراد على محادثة رجال الدين ومناقشتهم حول القضايا الروحية. وأشارت "كيا واشولتز" KI Wachholtz أن مثل هذه البرامج ذات دلالة إحصائية في استعادة خبرات الأفراد الروحية وتحمل الألم النفسي وإدارته بشكل جيد، إذ انخفض لدى الأفراد الذين يعانون من الاغتراب الديني مستوى القلق، وتطورت لديهم الخبرات الروحية واصبحوا ماهرين في كيفية استثمارها في حياتهم اليومية، وبدأوا يشعرون من جديد بالسعادة والرفاهية الوجودية.(٣١)

كما يمكن علاج مثل هذه الأمراض بتنمية ما يُعرف بـ "المناعة النفسية" Psycho Immunity، وهي قدرة الشخص على مواجهة الأزمات والكروب، وتحمل الصعوبات والمصائب، ومقاومة ما ينتج عنها من أفكار ومشاعر غضب وسخط وعداوة وانتقام وأفكار ومشاعر يأس وعجز وتشاؤم، وهناك عدة عمليات يمكن من خلالها تنشيط المناعة النفسية للفرد، منها الرضا وترك السخط، والتفاؤل وترك التشاؤم، والصبر وترك الجزع، والشكر وترك الجحود، والحب وترك العداوة، والعفو وترك الانتقام، والصدق وترك الكذب، والذِكر وترك الغفلة، والتوكل وترك التواكل. وكذلك بتنمية "الحاجات الروحية"، فقد أودع الله في الإنسان حاجات يسميها علماء الصحة النفسية "الحاجات إلى الدين" أو "الحاجات الروحانية" تدفعه إلى البحث عن إله يعظمه ويقدسه، ويرتبط به، ويلجأ إليه، ويعمل على ما يرضيه من العبادات. وترتبط الحاجات إلى الدين بالبعد الروحي في الصحة النفسية، الذي يدفع الإنسان إلى عبادة الله واللجوء إليه في السراء والضراء، فيجد عنده الحماية، والرعاية، والمغفرة، والرحمة، والرزق، ...إلخ ، فيشعر بالأمن والطمأنينة، ويجد في وجوده مع الله القوة والعزم على مواجهة الضغوط والمصائب.(٣٢) كما يمكن أن يستخدم وخاصة في مرض الإلحاد الربط بين الإيمان بالله والأمل البشري، وهذا الأمل يتعلق بمصير الإنسان وإسعاده في هذه الدنيا دون التطرق بشكل مباشر للعلة الأعلى الخالقة للإنسان، ولكن يمكن في النهاية إظهار أن الأمل بالله يشتمل على إثبات الله الذي هو حيرٌ للإنسان.(٣٣)

(٣١) المرجع السابق، ص ٤.
(٣٢) عبد اللطيف محمد خليفة: مرجع سابق، ص ١٠٦، ١٠٧.
(٣٣) باترك ماسترسن: الإلحاد والاغتراب بحث في المصادر الفلسفية للإلحاد المعاصر، ترجمة هبة نصر، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، ٢٠١٧م، ص ٨.

الخاتمة:

يعد مفهوم "الاغتراب" من المفاهيم التي اهتم بها كثير من اللاهوتيين والفلاسفة قديمًا وحديثًا، فالاغتراب في أبسط معانيه هو "الانفصال والابتعاد وقطع التواصل سواء تحقق ذلك بشكل إرادي أو غير إرادي"، كما تنوعت مدلولاته ومعانيه وفقًا لسياقات استخدامه، فهناك الاغتراب الاقتصادي واهتم به ماركس، وهناك الاغتراب السياسي واهتم به فلاسفة العقد الاجتماعي. وهناك الاغتراب الاجتماعي واهتم به دوركايم، وهناك الاغتراب النفسي واهتم به فرويد ... إلخ. أما بالنسبة لمفهوم "الاغتراب الديني" فهو: "انحلال وثوقيَّة الترابط والتواصل بين الإنسان والله". ويرتبط الاغتراب الديني بشكل وثيق بالأديان التوحيدية - اليهودية، والمسيحية، والإسلام- بشكل عام وبحادثة الخطيئة الأصلية والتي جاءت في كل منهم بشكل خاص. فقد وردت في "العهد القديم" في "سِفرِ التَّكوِين" في الإصحاحين الثاني والثالث، وكذلك في "العهد الجديد" في "رِسَالَةُ بُولُسَ الرَّسُولِ إِلَى أَهْلِ رُومِيَةَ" في الإصحاح الخامس، وكذلك في "القرآن" في سورة البقرة، ومن الجدير بالذكر إيضاح أن الكتب السماوية تشترك في عرض أحداث هده الحادثة وإن اختلفوا في ماهية هذه الأحداث.

وتُقِر تلك الحادثة بشكل عام أن "آدم" (عليه السلام) ارتكب خطيئة، وعصى أوامر ربه، وانصاع وراء حواء، والتي بدورها أُغويَّت بفعل الشيطان، فأنزلهما الله من السماء إلى الأرض. فليست المشكلة في الخطيئة التي ارتكبها آدم، وإنما تكمن المشكلة في حقيقة الأمر في الغِلو والتطرف الهيرمنيوطيقي في تأويل وفهم وتفسير واقعة تلك الخطيئة، بأن هناك خطيئة أصلية ارتكبها آدم وتوارثها جميع البشر منذ أن قام بها آدم حتى قيام الساعة آخر الزمان، ولهذا وجب التكفير عنها، فشرع أنصار كل دين يقومون بنوعٍ من المغالاة والتطرف في آلية تكفير أنصار أديانهم عن تلك الخطيئة، وهو ما يؤدي إلى نتائج بالغة الخطورة حتى على الدين ذاته، لأن كل دين من الأديان السماوية لم تقل بها على الإطلاق، ومرجع ذلك محاولة جعل البشر يخضعون لسلطة رجال الدين لأنهم بيدهم وحدهم الخلاص الإنساني، وهو ما يتنافى ومنطق العقل الطبيعي للإنسان.

فلقد تجلى مثل هذا التطرف الهيرمنيوطيقي لدى كل من: القديس بولس وأوغسطينيوس عندما قاما بتأويل وراثة الخطيئة بأنه وراثة بيولوجية. فهذا الفهم والتفسير المتطرف سيترتب عليه نتيجة بالغة الخطورة، والتي تتمثل في ترسيخ فكرة

الاغتراب الديني للإنسان، وانعزاله عن خالقه، وقطع التواصل بينهما، وأن سعادة الإنسان لن تتحقق إلا بوجود مُخلص في كل زمان ومكان تتم من خلاله عملية المصالحة وإعادة التواصل بين الإنسان وربه، الأمر الذي يدمر فعل التواصل الشخصي بين الخالق والمخلوق، وهو أمر لا يمكن إزالته إلا بمنح الفهم العقلاني دلالات جديدة لكل من: المصطلحات والنصوص لتحقيق تأويل معتدل وفهم عقلاني لكل منها من ناحية ومحاولة إحياء النور الإلهي الذي بثه الله في قلب كل إنسان من ناحية أخرى. فإذا كانت حالة الاغتراب الديني قد تحققت نتيجة لغلو بعض المتطرفين في فهم وتفسير النصوص الدينية فهذا يرجع إما مسايرة هؤلاء المتطرفون لأيديولوجياتهم الخاصة أو محاولة تناغم النصوص مع ما يفرضه السياق الزماني والمكاني.

كما أن حالة الاغتراب الديني ترتبط ارتباطًا وثيقًا بكثير من ألوان الاغتراب التي باتت منتشرة في عالمنا المعاصر، مثل الاغتراب السياسي، والاغتراب الاقتصادي، والاغتراب الاجتماعي، والاغتراب البيئي، والاغتراب النفسي ... إلخ، فتزايد مثل تلك الأنواع من الاغتراب قد يؤدي في الغالب إلى تنامي الاغتراب الديني، فعندما يعيش الإنسان حالة انعزالية وتُدَعِمُها غالبية الأوضاع السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والبيئية، والنفسية ... إلخ التي يعيش الإنسان في سياقاتها، فهو ينعكس سلبًا على حالته النفسية والعقلية، ويجعلها تقود إلى نتائج كارثية من شأنها أن تهدد الأمن الإنساني على كافة المستويات. فحالة الاغتراب الديني التي يعيشها الإنسان المعاصر كثيرًا ما تأخذ شكلًا مزدوجًا؛ فتارة تظهر بشكل عَلَنِيّ وخاصة عندما يصرح بها صاحبها، وتارة تظهر بشكل خَفِيّ وخاصة في الممارسات الحياتية دون تصريح لها.

فتنامي مثل ذلك التطرف قد يؤدي إلى نتائج بالغة الخطورة على حياة الإنسان المعاصر، ويأتي على رأسها ظهور أمراض نفسية مثل (الانتحار) وأمراض فكرية مثل (الإلحاد). فبالنسبة للانتحار، نجد أن الإنسان يعيش في حالة من الاغتراب الديني وفقًا للتطرف في تأويلها أو فهمها بشكل منحرف، فينشئ عن ذلك داخل الإنسان نزعة تشاؤمية يائسة من عدم جدوى الحياة، وفقدان الأمن، والاضطراب النفسي، وعدم الاستقرار الوجداني، ونزع الاطمئنان الداخلي والروحي، ... إلخ؛ فيفقد الإنسان مذاق الحياة، وفي هذه الحالة يُصوَّر للإنسان أنه بعيدًا عن معية الله وعنايته، فما الفائدة من الحياة طالما أن الإنسان مغتربًا عن الله من ناحية والله غاضبًا على الإنسان من ناحية أخرى، فنتيجة ذلك هي الانتحار.

كما يساهم التطرف الهيرمنيوطيقي للاغتراب الديني في تنامي ظاهرة "الإلحاد"، لأن تحقق الاغتراب الديني لهو خير دليل على عدم معقولية الإيمان، هذا فضلًا عن تصور كون الله ظالمًا، وكذلك التضحية بحرية الإرادة، وهو ما يتناقض مع ما يدعو له أي دين سماوي، ومن شأن هذه الأمراض أن تهدد الأمن الإنساني، ولا يمكن الحد منها إلا إذا تم دحض ذلك التطرف والغِلِّو من ناحية وإعلاء النزعة الإنسانية من ناحية أخرى.

قائمة المصادر والمراجع:

١. باترك ماسترسن: ***الإلحاد والاغتراب بحث في المصادر الفلسفية للإلحاد المعاصر***، ترجمة هبة نصر، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، ٢٠١٧م.

٢. حليم بركات: ***الاغتراب في الثقافة العربية*** "متاهات الإنسان بين الحلم والواقع"، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٦م.

٣. سامي خشبة: ***مصطلحات فكرية***، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٨م،

٤. صلاح الدين أحمد الجماعي: ***الاغتراب النفسي الاجتماعي وعلاقته بالتوافق النفسي والاجتماعي***، دار زهران للنشر والتوزيع، عمان، ٢٠١٠م.

٥. عبد اللطيف محمد خليفة: ***دراسات في سيكولوجية الاغتراب***، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٣م.

٦. عبد الله عبد الله: ***الاغتراب النفسي وعلاقته بالصحة النفسية***، جامعة الجزائر (بن يوسف بن خدة)، ٢٠٠٨م.

٧. علي عبد الرحيم صالح: ***الاغتراب عن الله***، شبكة العلوم النفسية العربية.
http://www.arabpsynet.com/Documents/DocAlypsy-AlienationFromGod.pdf

٨. لزهر مساعدية: ***نظرية الاغتراب من المنظورين العربي والغربي***، دار الخلدونية، الجزائر، ٢٠١٣م.

٩. محمود رجب: ***الاغتراب "سيرة ومصطلح"*** ، دار المعارف، ط ٣، القاهرة، ١٩٨٨م.

١٠. مراد وهبه: ***المعجم الفلسفي***، دار قباء الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٧م.